رحلة قصيرة مع تاريخنا

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

رحلة قصيرة مع تاريخنا

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنه منذ أن انطلق المجاهدون للفتح، يطلبون الشهادة في سبيل الله، ويبتغون الثواب من الله، بما يُقدّمون من أنفسهم وأموالهم وكل ما يملكون من متاع الدنيا، للوصول إلى النصر، وإلى الحصول على الشهادة. هذه أمنية المسلم وهذا مبتغاه، فإن حقّق النصر فقد ارتفعت راية الإسلام، وفُتح أمامه طريق الدعوة إلى الله، حيث غدت للمسلمين السيادة، وصارت كلمة الحق هي العليا وكلمة أعداء الله السفلى، وذلّ أعداء المسلمين وخنعوا وغدوا تبعاً للمسلمين، وإن نال المسلم الشهادة فقد فاز فوزاً عظيماً، إذ وصل إلى ما وُعد به من جنّةٍ تجري من

تحتها الأنهار أُكلها دائم وظلّها دائم، ويا لفرحة أهله، لقد قُبلت هديتهم التي هي ولدهم الذي وافقوا على جهاده وبعثوه ودعوا له بالتوفيق، فوفّقه الله سبحانه وتعالى في جهاده ونال ما تمنّى.

لقد كان النصر مرافقاً للجهاد دون النظر إلى العدد، ذلك لأن المسلم يندفع للقتال يطلب الشهادة، ومن يطلب الشهادة وُهبت له الحياة، سواء أكان ذلك في الدنيا من نصرٍ وسلطانٍ ومغانم كثيرةٍ يأخذها، ودعوةٍ يُحقّقها، وأمل يسعى إليه، أم كان ذلك في الآخرة في حياةٍ سعيدةٍ دائمةٍ في جنةٍ عاليةٍ، تجري من تحتها الأنهار، قطوفها دانية، فيها حدائق وأعناباً، وكواعب أتراباً، لا يسمع فيها لغواً ولا كِذّاباً، جزاءً من ربك عطاءً حساباً، فكيف ينطلق من يؤمن بهذا!!!! إنه يندفع كالسهم لا يهتمّ بخصمٍ، ولا يبالي بموتٍ، ولا يُفكر بأهلٍ، إنه يريد الفوز بالجنة أو الوصول إلى العزّة بحياةٍ إسلاميةٍ سعيدةٍ.

إن جيشاً هكذا أفراده كيف يكون أمامه أعداؤه؟ أعداؤه الذين يطلبون الحياة فيسعون إلى النجاة، ويعملون للوصول إلى المدن للفوز بالشهوات والجمع والسرقات. ينطلق المجاهد غير هيّابٍ يحصد بالرؤوس

يميناً وشمالاً، فخصمه إما جثث تدوسها خيله، وإما أشباه رجال تفرّ تطلب الحياة، ومن طلب الحياة نال الذلّ وذاق المرّ، أو غدا في عالم النسيان لا يُذكر بخيرٍ، ولا يُسجّل له موقف يُثنى عليه فيه.

إن العدد لا يفيد والكثرة لا تُجدي. فقد كان المسلمون في معظم وقائعهم قلّةً، إذ هم في بدء دعوتهم وأول عهدهم وبداية انطلاقهم، وكان خصومهم أعداداً كثيرين إذ هم في أوج أيامهم، وزمن قوتهم، واتساع نفوذهم، وعصر سيطرتهم، ولكن لم يُفد هذا شيئاً، إذ لا تقف قوة أمام مجاهدٍ، ولا يثبت عدد أمام مؤمنٍ، فالمجاهد المؤمن لا يهاب قوةً ولا يُخيفه عدد، وغير المجاهد المؤمن يخشى العدد ويرهب القوة، ويجبن أمام السلاح، وترتعد فرائصه عند سماع الإنذار والخطر.

كانت المعارك بين المسلمين وأعدائهم متباينةً بالعدد، مختلفةً بالحشد، وكان النصر فيها ـ بإذن الله ـ للفئة القليلة المؤمنة، لما يجري في عروقها من إيمانٍ، وما تتمتع به من عزيمةٍ صادقةٍ، وما تحمله من روحٍ معنويةٍ عاليةٍ ترسخها فكرة الجهاد.

وكانت الخلافة الإسلامية هي المسؤولة عن تسيير

هذه الأعمال، بما تُنظّمه من أمورٍ وما تقوم به من أفعالٍ، فهي التي ترفع راية الجهاد وتدعو المسلمين من مختلف ديارهم وأمصارهم للجهاد. ويتقدم الخليفة المجاهدين، ويهبّ الدعاة إلى الله كأنهم أسود الشرى لا يبتغون سوى رضاء الله، ولا أمل لهم إلا الفردوس. فيا لها من غايةٍ شريفةٍ.

وتلتقي كتائب الإيمان مع حشود أعدائها وجموعهم فتهزمهم غير مباليةٍ وتقهرهم لا تعبأ بمكرهم ومخططاتهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة] و﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال].

وتبتهج الدنيا بانتصار الحق، وترفرف أعلام الإيمان على الأرض، وتتفتح أبواب الجنان للشهداء، ويذلّ أهل الباطل، ويُساق الذين كفروا إلى جهنم زمراً.

اللهم أدم علم الجهاد، واكتبنا مع الشهداء، واجعل لإخواننا النصر وثبّتهم على الحق لينشروا الدعوة وينصروا الحق، ويعملوا بما أنزل الله، والله وليُّ المتقين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الباب الأول

عصر صدر الإسلام

الخلافة والجهاد

سيّرت الخلافة كتائب المجاهدين إلى كل ناحيةٍ إذ كانت الجبهات متعددةً، وكانت ديار الإسلام لا تزال محدودة الرقعة، مساحةً قليلة السكان عدداً، فانطلقت الكتائب والتقت مع حشود الأعداء وتتابعت المعارك في المشرق، وتوالت الوقائع في الشمال، وتتالت اللقاءات في الغرب، وكلها كانت تُحرز الانتصارات وتنال الظفر، بشكلٍ يلفت النظر لفارق العدد وتجارب الأيام، وتصل الأخبار إلى قاعدة الخلافة، فيرى المجتمع الأمر عادياً مادامت كتائبه مؤمنةً فالإيمان لا يقهر، ومن ينصره الله فلا غالب له، والله ينصر عباده المؤمنين، ومن يكن مع الله فلن تقف أمامه قوة في الأرض مهما عتت، ولن تستطيع لقاءه فئة مهما طغت، والمجتمع الإسلامي يعتقد أن جيشه مؤمن ـ إن شاء الله ـ وقد خرج داعياً إلى الله، مجاهداً في سبيل الله، يبتغي رضوان الله. وقد سيّرته الخلافة على هذا الأساس، ووجهته لذلك، وقائده مثالاً لهذا، وجيش هذه صفته ينتصر في لقاءاته كلها ـ بإذن الله ـ أما الأعداء فكانوا

يُصعقون من وصول خبر انتصار المسلمين المؤزّر مع الفارق في العدد والتباين في التدريب، ويُشدهون من النتيجة المفزعة لهم، ويحارون في الأسباب، وذلك لأنهم لا يعرفون حقيقة الإيمان وما تفعله في النفوس.

توالت المعارك قروناً واستمرّت بصورةٍ واحدةٍ نسبياً مادامت راية الجهاد مرفوعةً، والنفوس بالإيمان عامرةً والإخلاص لله قائماً، والصدق في اللقاء حاضراً، والتربية على ذلك دائمةً، والمسؤولون على النهج السليم يعملون، واختيار القيادات، وإعطاء الرايات، والتوجيه، والتزويد والإمدادات ورعاية الأهل في البلدان، وعمل هذا بحقٍّ يدلّ على صدق العمل والاحتساب عند الله، والتواني فيه يدلّ على الدغل وعدم الصدق بالعمل.

شغل التفكير بما يجري كبار الأعداء وأصحاب الرأي فيهم، فتعدّدت الأفكار عندهم وتشعّبت الآراء بينهم، ولم يصلوا إلى نتيجةٍ، ولم يقعوا على سببٍ لأنهم لا يعرفون الإيمان ولا يحسّون بآثاره، فمن خاض بموضوعٍ على جهلٍ لا يصل إلى حقيقةٍ، ومن دخل البحر ولا يعرف السباحة غرق، ومن جال في متاهةٍ ولا يعرف لها مخرجاً ضلّ وغاب، فكيف إذا كان

بالأصل في ضلالٍ وهو أعمى لا يعرف الطريق ولا يمشي على هدىً وبيانٍ.

وأريد أن أوضح لهؤلاء السبيل من باب الدعوة إلى الله، عسى الله أن يهديهم فأنال الأجر والثواب، ويسيرون على حقٍّ فتهتدي أقوامهم، وتسعد البشرية بفوجٍ جديدٍ من أهل الصلاح.

إن انتصار المسلمين الساحق للأعداء المكلّل بالفوز والنجاح يعتمد على أمورٍ ثلاثةٍ، يرتبط بعضها ببعضٍ، وهي: الإيمان، والخلافة، والجهاد. وقد أدرك الأعداء جوانب من ذلك، وخططوا لها عندما قوي أمرهم.

الفصل الأول

الإيمـان

يؤمن المسلم أن الله رب العالمين، وهو خالق السماوات والأراضين، وخالق البشر والكائنات جميعها، وخلق الموت والحياة ليبلوَ البشر أيهم أحسن عملاً، وإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون. وأن النصر بيد الله ينصر من يشاء بغير حسابٍ، فلا أهمية للعدد ولا للسلاح، فقد أهلك قوم عادٍ بالريح العقيم، وأخذ ثمود بالصاعقة، وأغرق قوم نوحٍ، وقوم فرعون، وأخذ قوم شعيبٍ بالصيحة، وجعل أرض قوم لوطٍ عاليها سافلها وأمطرهم بحجارةٍ من سجيلٍ فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ، وهزم الأحزاب يوم الخندق بالريح، وجندٍ لله لم يروها.

فالمؤمن يعتقد أن النصر بيد الله، فيندفع لا يُبالي بأعداد الأعداء ولا يهتمّ بسلاحهم، ولكن الذي يُهمّه أن يكون وإخوانه المجاهدون مخلصي النيّة للقتال في

سبيل الله صادقي العزم، فإذا التقوا بأعدائهم لا تُهمّهم كثرتهم ولا يُخيفهم عددهم، فيندفعون في سبيل الله فينصرهم الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد] ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران].

أما غير المؤمنين ـ وهم الأعداء ـ فيرون أن الغلبة للمادة فالنصر للكثرة، فإذا ما رأوا أمامهم جنداً كثيراً، أو عتاداً وفيراً، أو أفراداً ذا معنوياتٍ عاليةٍ، أو مندفعين بحماسةٍ شديدةٍ، فما أن يروا ذلك حتى ترتعد فرائصهم وتنهار معنوياتهم، وُيولّون الأدبار لا يلوون على شيءٍ، ولا يُفكّر الأخ بأخيه ولا القريب بجاره.

وهذا ما كان يحدث في صدر الإسلام، واستمّر مادامت ترتفع راية الجهاد، أو عندما كانت ترتفع، لذا كان همّ أعداء المسلمين أن يعملوا جاهدين ألا ترتفع عند المسلمين راية الجهاد، لأنه إذا ارتفعت زادت حماستهم، وارتفعت معنوياتهم، واندفعوا بقوةٍ نحو أعدائهم يعملون بهم ضرباً وطعناً، لا يُبالون حشدهم ولا يهتمون بجمعهم، فلا يجد الأعداء أنفسهم إلا مولّين الأدبار يطلبون الأمان، أو يرجون النجاة.

الفصل الثاني

الخلافة

الخلافة عنوان وحدة الأمة الإسلامية، والتقاء أمصارها، واجتماع صفوفها، واتحاد كلمتها، ويمثّلها الخليفة الذي يختاره أهل العلم من أهل الحلّ والعقد، وكان أول من حمل هذا اللقب هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فهو خليفة رسول الله ﷺ يخلفه في السلطة، وفي السير على منهجه، ثم أُطلق على من جاء بعده: خليفة خليفة رسول الله ﷺ، وحتى لا يكون التكرار لكلمة خليفةٍ متعدداً، اقتصر على لفظٍ واحدٍ (خليفة) ويُعطي مدلول اللفظ الأول. والخلافة عامة بين المسلمين لا تُحصر في شعبٍ أو قبيلةٍ أو أسرةٍ، غير أن الحاقدين الماكرين قد انتبهوا لهذا وأرادوا حصرها في أسرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليبقى الصراع بين المسلمين قائماً. وعندما تسلّم بنو أمية الخلافة كان هجوم الحاقدين عليهم، ومطالبين بجعل الخلافة في

أسرة عليّ رضي الله عنه، أي نقل الخلافة من أسرةٍ إلى أسرةٍ، لذا لم يلقوا التأييد الذي كانوا يرجونه، ولو كانت مطالبتهم بترك الوراثية، واتباع الأصل الصحيح لحصلوا على تأييدٍ، غير أن هدفهم غير هذا إذ يرغبون في استمرار النزاع على الخلافة وبقاء الصراع لتجزئة الأمة الإسلامية وإضعافها، وهوانها.

انتقل الحاقدون الماكرون إلى محطةٍ ثانيةٍ، إذ وقفوا بجانب رجال الدعوة لبني العباس، ليشمل الصراع في الأمة أكثر من أسرتين وليتسع مجال الخلاف، وبعد نجاح العباسيين واستلامهم الخلافة، وثبات قدمهم، واستقرار أمرهم، وخُفوت صوت الأمويين، واكتفائهم بالأندلس، وهذا ما حرّك الحقد عند الماكرين، فعادوا إلى أسلوب الإثارة، ورجعوا إلى المحطة الأولى بادّعاء الوقوف إلى جانب الطالبيين وإثارتهم على العباسيين، فوقعت فتن، وحدث صراع، لكن ليس على المستوى الذي يريده الحاقدون رغم ما حدث من تجزئة للأمة وقيام دويلاتٍ وإماراتٍ معارضةٍ للخلافة، مخالفةٍ لأفكارها من بويهيين، وسامانيين، وحمدانيين، وعبيديين، وقرامطة.

بقيت الخلافة الإسلامية ذات مكانةٍ نسبيةٍ رغم

ضعفها الذي ذكرناه، ورغم السيطرة على الخلفاء من قبل أسرٍ غريبةٍ، وهذا ما هزّ كيان الحاقدين الماكرين، فكأنهم لم يفعلوا شيئاً، فزاد حقدهم، وحرّك مكرهم.

وظهرت قوة المغول الوثنيين، فتحركت الضغائن، فأرسل الصليبيون لهم النساء خليلاتٍ وحليلاتٍ، يُشجّعنهم على مهاجمة ديار الإسلام، ويُحرّضنهم على دخول بغداد ـ قاعدة الخلافة ـ فإنها بقيت رمز وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم رغم كل ما حلّ. وفي الوقت نفسه فإن الحاقدين والماكرين قد مدّوا أيديهم إلى المغول والوثنيين، رغم إظهار الحاقدين والماكرين الإسلام، والمناداة به، ورفع شعاره، وهكذا التقى كيد الوثنيين والصليبيين والحاقدين، وسقطت الخلافة.

بقيت الخلافة حسرةً في قلوب المسلمين، وزفرة تظهر بين الحين والحين، وعندهم شوق لإعادة هذا العنوان الجامع للأمة المُرعب لأعدائها، ولكن التجزئة، والانصراف إلى الدنيا، وكيد الأعداء ومكر الحاقدين في الداخل مع إظهارهم الإسلام، كل هذا كان يُعيق العمل الجاد لعودة الخلافة، ويُلهب حرقة الأكباد.

الفصل الثالث

الجهاد

الجهاد سلاح المسلمين البتّار، وباعث الروح المعنوية الفعّال، وسبيل الوصول إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ
أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ
وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ
وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف] ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ
بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة].

كان المسلمون يخرجون مجاهدين في سبيل الله، دعاةً إلى إسلامهم، راغبين بالشهادة في سبيل الله، آملين بجنة ربهم، يريدون نصر إخوانهم، وإقامة منهج

دينهم في الأرض في سبيل العدل ونشر الفضيلة، فما أن يلتقوا بأعدائهم المعاندين حتى ينقضّوا عليهم انقضاض الأسود، طامحين بالشهادة وكلهم أمل في قبول ربّهم لجهادهم وتضحيتهم لينالوا الرضا ويصلوا إلى جنّة الخلد، وينصروا إخوانهم وينشروا دينهم، ومتى انطلق المسلمون على عدوّهم فلن يثبت أمامهم، بل يُولّي الأدبار لا يلي على شيءٍ ولا يهتمّ بأمرٍ، يُخيفه اندفاعهم، وتُرهبه جرأتهم، ويعرف طلبهم الشهادة، ورغبتهم بالآخرة، وهو يطلب الحياة فيرغب بالنجاة، فيفرّ من أمامهم تاركاً سلاحه ليكون خفيفاً وينجو بنفسه.

لذا كان الأعداء جميعاً من مختلف الشعوب وعلى مختلف الجبهات، من فرسٍ، وروم، وقبطٍ، من يهودٍ، وصليبيين، ومجوسٍ، من شمالٍ، وغربٍ، وشرقٍ، يرهبون المسلمين ويعرفون نتيجة نزالهم لهم قبل اللقاء، وكانت النتيجة أن زالت دولة الفرس وانتهت وأقبل شعبها على الإسلام، وتراجعت دولة الروم وتخلّت عن مصر والشام وأجزاء من الأناضول، وانزوى قادتها في جحورهم، وأصاب الشعب الخوف، وكلما دعا داعي اللقاء دبّ الهلع في النفوس قبل أن

يتمّ اللقاء ويحدث الاشتباك، إلا أن تكون منهم غارة لإثبات وجودهم أو يقوموا بهجومٍ جانبيٍ خفيفٍ إظهاراً بأنه لا تزال لهم قوة قائمة يمكن الدفاع بها.

كان همّ الأعداء الأساسي ألا يُثيروا المسلمين فيُعلنون الجهاد، وعندها تحلّ بالأعداء النازلة وتنزل بهم الكارثة. وكان المسلمون في تلك الآونة يعملون على ترسيخ جذور الإسلام بما فتحوه من بلدان.

الباب الثاني

عَصرُ الضعْف

فُتحت البلدان أمام المجاهدين، فدان أهلها بالإسلام أو رحلوا، أو دفعوا الجزية وسكنوا وغدوا في ذمّة المسلمين، وبذا فقد وقعت أملاك بأيدي المسلمين من جهادهم، وجاءتهم الغنائم من مختلف الجبهات وفيرةً، وأتتهم أفواج السبي من كل ناحيةٍ خدماً وجواري، وعندهم القوة فالعدل قائم، والأمن منتشر، والاستقرار عام، والعدوّ لا يملك المثل فلا يستطيع المناجزة ولا يمكنه الاعتداء، فغبّ الناس من نعيم الدنيا، ورتعوا في بحبوحة الحياة، ونالوا مما تشتهي الأنفس وتقرّ به الأعين، إذ سكنوا القصور، وملكوا الحدائق الغنّاء، وكان عندهم الخدم من الرجال الأشدّاء يخدمون، ويعملون في البساتين ويشتغلون في الأعمال كلها، وعندهم الفتيات الحسان من الحرائر الحليلات، ومن الجواري النشيطات اللواتي يعملن في المنازل والقصور، ويقمن بأعمال الحليلات.

نَعِم الناس بالحياة إذ ملكوا المتاع، وقلّ النفير، وخفّ الجهاد، وزادت الرغبة، وطفحت الشهوة،

ومالت النفس إلى ما تتمنّى، فهذا يرغب بالمكانة، وذاك يعمل للسيادة، وهذا يحبّ الإقامة بالقصور، وذاك يميل إلى الحياة بين الزهور في البساتين الموردة والحدائق المزهرة والحقول النضرة مع أهله بحسن العِشرة، بالرغبة وطبيعة الفطرة، وآخر يرغب بالارتحال، والسفر والانتقال، وحب النزهة والتجوال بين المدن والأمصار للتفكير في خلق الله لأخذ العِظة والاعتبار.

وهناك من تميل نفسه للعودة إلى الجهاد للدعوة ونشر الإسلام وقطع دابر الكفر والإشراك، ومنهم من يميل لمتابعة تحصيل العلم ليقدّم للناس الخير من تقديم كتبٍ، ونشر علمٍ، ودعوةٍ إلى الله، وقد يرتحل المسافات الطوال للوصول إلى عالمٍ معروفٍ أو سماع حديثٍ لرسول الله ﷺ لا يعرفه، أو خبر لم يتأكّد منه.

هذا هو المجتمع الإسلامي في هذه المرحلة من تاريخنا.

الفصل الأول

الإيمان

مع انصراف فئةٍ من المجتمع الإسلامي إلى الدنيا والأخذ من معينها، والانصراف إلى نعيمها والنوال من متاعها، إلا أن النفوس لا تزال عامرةً بالإيمان مشحونةً به وراسخاً فيها، إذا ذُكّرت استجابت، وإذا نُبّهت ثارت، وإذا دُعيت أجابت، وإذا طُلب منها عمل أطاعت، وإذا أُعلن النفير لبّت ودفعت، وجاهدت وضحّت.

أما الفئة الثانية فقد قدّمت العلم الغزير الداعي للإيمان، الدافع للهمّة، الباعث للنشاط، المفيد للدعوة، الثروة للأجيال على مدى الأيام، وأعطت الكتب الكثيرة التي يُنهل منها العلم، وتُؤخذ منها الدروس والعبر، ويُرجع إليها عند الملمّات، وتُعدّ تراثاً للأمة المسلمة لا يُعادله تراث عند أمةٍ من أمم الأرض. وفوق كل هذا فقد كان رجال من هذه الفئة قدوةً صالحةً

لأبناء الأمة في سلوكهم وتضحياتهم، وإقبالهم على العلم، وجرأتهم على الحق، وتربيتهم، وشجاعتهم إذا ما ادلهمّ الخطب وحمي الوطيس.

وهناك شواذ من طلاّب الدنيا، وأهل الفتن، وأصحاب الشهوات، ورجال المصالح، والذين أظهروا الإسلام بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وقد سجّل هؤلاء كتباً، ونظموا شعراً، ورووا قصصاً تُمثّل حياتهم، وتُدوّن أخبارهم، وجاء خَلَفُهم، فطبعوا ما سجّل سلفهم، وزادوا ونشروا وغالوا، وأكثروا من الثناء والمديح، وبالغوا في كثرة مؤيديهم وأعوانهم حتى يُظنّ أنهم كانوا يُمثّلون أكثرية المجتمع، وما هم في الحقيقة إلا فئة قليلة تُمثّل شواذ مجتمع تلك المرحلة.

الفصل الثاني

الخلافة

رأى أعداء الإسلام ضعف الخلافة، بل وضعف الأمة الإسلامية، ولكن لم يعملوا على شنّ هجومٍ صاعقٍ يقضوا فيه على الخلافة فيزداد عندها ضعفُ الأمة، إذ تتفكك عرا وحدتها، فيمكن عندها القضاء عليها، وإرواء غليلهم وتحقيق هدفهم، لأنهم حسبوا لو أنهم شنّوا هجوماً على الخلافة لدّبت الروح المعنوية في المجتمع، وزادت الحماسة، وارتفعت راية الجهاد، وعندها لا يمكن الوقوف أمام المسلمين، لذا فكّر الأعداء أن يتركوا الضعف يسري في الخلافة تدريجياً، ومتى انهارت أخذ الضعف ينتشر في الأمة بسرعةٍ حتى تتجزّأ أمصارها، فيمكن عندها اجتثاثها مصراً بعد مصرٍ، وإمارةً إثر أخرى حتى ينتهي أمرها، وعندها يتحقّق هدف الأعداء، ويمكن تأمين ما يريدون، وتنفيذ ما يخططون له.

انتظر الأعداء انتظار الخائف الذي يريد عمل شيءٍ وفرائصه ترتعد وأعصابه ترتجف، يرون الضعف ولكن لا يجرؤون على الإقدام، وفي الواقع لم تكن هناك الإمكانات اللازمة لذلك، وشاءت إرادة الله أن تظهر قوة المغول الوثنيين في شرق ديار الإسلام، وتحرّكت تلك القوة نحو البلدان الإسلامية، وأسرع الصليبيون بإرسال النساء إليهم يُشجّعنهم على غزو ديار المسلمين، ويُغرينهم بإمكانات تلك البلاد، كما مدّ الحاقدون أيديهم إلى المغول وكانت النتيجة القضاء على الخلافة الإسلامية في بغداد، فدخل السرور إلى قلوب الأعداء، وابتهجت نفوسهم، وازيّنت ديارهم، وأخذ الاستعداد النفسي للقيام على ديار الإسلام بهجومٍ كاسحٍ، وبدأ التخطيط لذلك، والتفكير الجاد، وما مضت سوى سنتين حتى قامت خلافة عباسية جديدة في القاهرة في ظلّ دولة المماليك.

ظهرت الخلافة من جديدٍ، ولكنها في حالةٍ أقرب ما تكون للغياب، إذ الخليفة قائم في ظلّ سلطان من المماليك (العبيد)، ودولةٍ ضعيفةٍ، فهو صورة واسم لا أكثر، ومع ذلك فقد أرهب الأعداء، وأخاف الجوار، وخاصةً بعد انتصارٍ أحرزوه على المغول أعقبه انتصارات.

أراد الأعداء ضرب هذه الخلافة الضعيفة خوفاً من أن يشتدّ ساعدها، ويتبع المسلمون الآخرون أرضهم بديارها، ويرفعون كيان الخليفة غير أنهم لم يجرؤوا رغم معرفتهم بضعفها، إذ أن كلمة الخلافة تُخيف، لأنها تُمثل وحدة الأمة الإسلامية فيلتقي المسلمون على هدفٍ واحدٍ، وأن الخليفة إذا رفع راية الجهاد تجاوب المسلمون من مختلف أمصارهم، وأينما كانت ديارهم فساروا تحت ظلّ الراية، ومع شعار الخليفة.

لم يجرؤ الأعداء على التصدّي لهذه الخلافة الضعيفة، إذ أن كلمة الجهاد تُرهبهم، ووحدة المسلمين تُخيفهم، لذا كان الأعداء يكتفون بتعدياتٍ بسيطةٍ، يختبرون بها قوة المسلمين، وفي الوقت نفسه يعملون على إضعاف الخلافة، فكانوا يرسلون حملاتٍ من جزيرة قبرص أو من جزيرة رودوس، إذ يُشجّعون حكام الجزيرة للقيام بحملةٍ ضد دولة المماليك في مصر (الخلافة) ويدعمونه بإمكاناتهم، فتتحرّك الحملة وتهاجم سواحل مصر، فتارةً الإسكندرية، وأخرى دمياط، ولكن هذه الحملات كانت تفشل في مهمتها، وتعود خائبةً إلى مكان انطلاقها.

وظهرت السلطنة العثمانية بالأناضول، وبدأت

تقوى وتتسع أرجاؤها وتتقدّم في أوربا، كما انتصرت على الدولة الصفوية في الشرق، وأرادت أن تتعاون مع دولة المماليك دار الخلافة، لردّ البرتغاليين المستعمرين الذين قدموا من الجنوب، أملاً في التوسّع، وبفكر صليبيّ، وتدعمهم الدول الأوربية للهدف نفسه، ولإضعاف الدولة العثمانية بقتالها من الشرق ليخفّ ضغطها عن الدول الأوربية، ويقف تقدّمها في أوربا، غير أن المماليك قد رفضوا التعاون مع العثمانيين، كما رفضوا السماح لهم باجتياز أراضيهم للتوجّه إلى قتال البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنوبي جزيرة العرب ودخلوا البحر الأحمر وهدّدوا بدخول المدينة المنورة وتهديمها، ونبش قبر رسول الله ﷺ فيها.

رأى السلطان العثماني (سليم الأول) أنه لا بدّ له من أن يسير إلى دولة المماليك فيقضي عليها ويضمّ بلادها إلى دولته، ويقاتل البرتغاليين ويردّهم عن ديار المسلمين، فيكون بذلك قد أدّى واجبه بالدفاع عن المسلمين وبلادهم، وفي الوقت نفسه قضى على دولة المماليك، فعمل على وحدة المسلمين، كما أنه يكون قد قوّى دولته بضمّ دولة المماليك إليها فأصبحت دولته قويةً يمكنها القيام بمهمتها أكثر في قتال أوربا،

والانتصار عليها، فيكون قد عمل ما يقضي به الإسلام من الدعوة إلى الله، ونشر الإسلام في بلادٍ لم يصل إليها من قبل.

توجّه السلطان العثماني (سليم الأول) إلى دولة المماليك، فسار إلى بلاد الشام والتقى في (مرج دابق) مع الجيش المملوكي بقيادة السلطان المملوكي (قانصوه الغوري) في معركةٍ حاميةٍ يوم ٢٥رجب سنة ٩٢٢هـ، فانحاز ولاة الشام بمن معهم إلى جانب العثمانيين، فانتصر العثمانيون، وُقتل السلطان المملوكي (قانصوه الغوري)، ودخل العثمانيون حلب، وحماة، وحمص، ودمشق دون مقاومةٍ؛ بل بالاستقبال والترحيب في أغلب الأحيان.

أبقى السلطان العثماني (سليم الأول) ولاة الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم، بل زاد في نفوذ بعضهم حسبما بذلوا من جهدٍ في ميدان (مرج دابق)، واتجه إلى مصر فالتقى بالسلطان المملوكي الجديد (طومان باي) نائب (قانصوه الغوري) ثم خليفته، التقيا عند حدود بلاد الشام فهُزم المماليك ودخل العثمانيون مدينة غزة، وفي اليوم الأخير من سنة ٩٢٢هـ التقى الطرفان في معركة الريدانية على أبواب القاهرة، فانتصر

العثمانيون ثانيةً ودخلوا القاهرة في ٨ محرم سنة ٩٢٣هـ، واختفى السلطان المملوكي (طومان باي) ثم خرج مع كوكبةٍ من فرسانه يُقاتل العثمانيين في جهات الجيزة لكنه وقع أسيراً بأيديهم وقُتل في ١٢ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ.

بقي السلطان العثماني (سليم الأول) بالقاهرة ما يقرب من شهرٍ، وزّع خلالها الأُعطيات، وحضر الاحتفالات، وتنازل له الخليفة العباسي (محمد المتوكل على الله) عن الخلافة، وسلم مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك اليوم خليفة المسلمين وخادم الحرمين، كما جاءه (محمد أبو نُميّ بن الشريف بركات) شريف مكة، وأعلن له الطاعة.

قويت الدولة العثمانية إذ اتسعت بلادها وزاد سكانها، وغدت خلافةً للمسلمين تلقى الدعم المادي والتأييد المعنوي من المسلمين كافةً وخاصةً أنها تُقاتل الدول الأوربية الصليبية، وتُوحدّ الأمة الإسلامية فتلتقي الكلمة عندها وتجتمع الصفوف بها، وفي الوقت نفسه قويت الدول الأوربية إذ اجتمعت بلدانها واتفقت كلمتها على محاربة الخلافة الإسلامية، حيث بذلت الدول

الصليبية جهدها، ووضعت إمكاناتها كلها للقضاء على الخلافة الإسلامية لتضعف الأمة الإسلامية بالتفرقة، فلما قُضي عليها إذا بها تظهر من جديدٍ وتجتمع عليها الأمة، فالتقت الدول الأوربية على محاربة الخلافة الإسلامية، والعمل صفاً واحداً ضدّها.

أخذت الحروب تتسع وتزداد بين الخلافة الإسلامية في استانبول وبين تلك الدول الأوربية، ولم يتفوّق جانب، وإن كانت الدولة العثمانية تحتلّ أجزاءً من شرقي أوربا وقد ضمّتها إلى كيانها، وانتشر الإسلام في نواحي من ربوعها؛ بل ازداد انتشاره إذ كان قد عُرف من قبل.

الفصل الثالث

الجهـاد

بعد الانتصارات الرائعة التي حقّقها المسلمون، والفتوحات الواسعة التي حصلوا عليها، والغنائم الوفيرة التي جاءت إليهم، وأفواج السبي الكثيرة التي سيقت نحوهم، وبعد الأمن الذي ساد، والعدل الذي عمّ، والاستقرار الذي تمّ، انصرف كثير من المسلمين إلى نعيم الدنيا يغبّون منه، وإلى متاع الحياة ينالون منه، ومع هذا الانصراف أو التحوّل إلى الدنيا فقد بقيت القلوب عامرةً بالإيمان من نعم الله، فإذا ذُكّرت بالجهاد ودُعيت إليه هبّت بروحٍ صادقة، واندفعت بقلوبٍ مخلصةٍ ترجو رحمة الله، وتأمل ما وعد الله المجاهدين.

خرج امبراطور الروم (أرمانوس) من القسطنطينية سنة ٤٦٣هـ، متجهاً نحو الشرق، فوصل إلى (ملاذ كرد) في شرقي تركيا اليوم على مقربةٍ من بحيرة (وان) على رأس مائتين وأربعين ألف مقاتلٍ، ووصل الخبر إلى

السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) وهو في (أذربيجان) وقد عاد من حلب، فلم يتمكّن من جمع الجند لبُعده عن مقرّ حكمه، ولقرب العدوّ منه، فسار بمن معه وهو خمسة عشر ألفاً للقاء العدو متوكلاً على الله، وقال: إنني أجاهد محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني (ملكشاه) ولي عهدي، وجدّ في السير وأرسل مقدمته أمامه، فالتقت عند مدينة (خلاط) بمقدمة الروس، وكان عددهم عشرة آلافٍ، فهُزم الروس ـ بإذن الله ـ وأُسر قائدهم.

واقترب الجمعان بعضهما من بعضٍ، وأرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه الهدنة، إذ خافه لكثرة من معه، إذ يعادل جند ملك الروم خمسة عشر ضِعفاً من المسلمين، غير أن ملك الروم قد أخذته العزّة بالإثم لكثرة من معه، فقال: لا هدنة إلا في الريّ (طهران اليوم)، فتأثر السلطان من هذا الردّ المتغطرس، واستشار إمام جنده (أبا النصر محمد بن عبد الملك البخاريّ) فأجابه: إنك تقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر،

فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة، وكان يومها يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من شهر ذي القعدة.

جاء يوم الجمعة، وحان وقت الزوال فصلّى (أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاريّ) بالناس، فبكى السلطان وبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه بعد الصلاة، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وإنما جهاد ورغبة في لقاء الله، ثم ألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، ولبس البياض وتحنّط، وقال: إن قُتلت فهذا كفني، وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما اقترب منهم ترجّل، ومرّغ وجهه في التراب وبكى، وأكثر من الدعاء، وطلب النصر من الله، ثم ركب وحمل على الروم، وحمل المسلمون حتى وصلوا إلى وسط الروم وحجز الغبار بينهم، وما هي إلا جولة حتى أنزل الله نصره، وهُزم الروم، ومنحوا المسلمين أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى امتلأت الأرض بالجثث، وقُدّر عدد قتلى الروم بمائةٍ وخمسين ألفاً، أي أن كل مسلم قتل عشرةً من الروم، ووقع امبراطور الروم (أرمانَوس) وبطارقته جميعاً أسرى بيد المسلمين، وحُمل (أرمانوس) إلى السلطان (ألب أرسلان).

إذن لا وزن للمقاييس المادية ولا لحسابات أهل الأرض جميعاً، فلو أردنا أن نقدّر نتيجة هذه المعركة بأيّ مقياسٍ من مقاييس أهل الأرض نصل إلى أن النصر سيكون بجانب الروم لا شكّ فيه، وأن الهزيمة ستلحق بالمسلمين لا محالة، إذ سيُطبق عليهم الروم إطباقاً ويُفنونهم، وهذا أمر طبيعي فإن مائتين وأربعين ألفاً سيسدّون الأُفق وسيملؤون ميدان المعركة، وأن خمسة عشر ألفاً مقابلهم لا شيء.

ولكن تقدير الله غير هذا، فإن فئةً مؤمنةً ملتجئةً له متضرّعة إليه اتخذت الأسباب لا بدّ أن ينصرها الله. إن صرخة من مَلَكٍ كافيةً لتزلزل الأرض تحت أعداء الله، وتجعل عاليها سافلها وتمحو أثرهم.

وسار المغول نحو بلاد الشام، واستولوا على حلب في شهر صفر سنة ٦٥٨هـ، ودخلوا دمشق في شهر ربيع الثاني سنة ٦٥٨هـ بعد حصار دام شهراً، وبقيت قلعة دمشق صامدةً حتى٢١ جمادى الآخرة من السنة نفسها، ورجع (هولاكو) لوفاة أخيه، وتولى أمر المغول القائد (كتبغانوين) مكان (هولاكو).

بعد أن سقطت دمشق بيد المغول أرسل طاغيتهم (هولاكو) إلى الأمير (سيف الدين قطز) سلطان

المماليك في مصر، ويحمل إليه رسالة كلها تهديد ووعيد، فعقد (سيف الدين قطز) اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك، فكان الرأي العزم على الحرب، فقبض (سيف الدين قطز) على رجال وفد (هولاكو) وأعدمهم، وعرض أجسادهم للناس، وأخذ يستعدّ، فلما تمّ الاستعداد أرسل حملةً استطلاعيةً بإمارة (الظاهر بيبرس)، وتبعه هو على رأس الجيش، والتقيا في موقع (عين جالوت) وتدفّق المغول إلى ذلك الميدان، واحتدمت المعركة، وهجمت ميمنة المغول على ميسرة المسلمين، فتقدّم أمير الجيش الإسلامي (سيف الدين قطز) وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء، وصاح بأعلى صوته (واإسلاماه) وأشار بيده إلى الأمام، وقال: إلى الجهاد واندفع نحو المغول، والتفّ حوله جنود المسلمين، وقد ارتفعت الروح المعنوية بارتفاع راية الجهاد، وانقضّ المسلمون على المغول فأفنوهم، وقُتل قائد المغول (كتبغا) في ميدان المعركة، وأُسر ابنه.

إن القلوب العامرة بالإيمان تستجيب مباشرةٍ لدعوة الجهاد، فتندفع في سبيل الله تبتغي الأجر، فيكتب الله لها النصر، وينال بعضها الشهادة، وذلك الفوز العظيم.

الباب الثالث

الضَّيَاع

كانت الحرب دائرةً بين الدول العثمانية والدول الأوربية منذ ٧٦٢هـ، يوم فتح العثمانيون مدينة (أدرنة) وكانت حرباً عنيفةً، وقد اشتد أوارها يوم فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية

ـ عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) ـ وغدت مدينة القسطنطينية تحمل اسم مدينة الإسلام (إسلام بول) (استانبول) ثم التهب سعيرها وامتدّ حريقها، وعلا دخانها يوم تبنّى العثمانيون الخلافة، وحملوا مهمتها، وغدت (استانبول) قاعدة الخلافة.

لم تكن رحى هذه الحرب تدور في ميدان المعارك فقط، بل كان يصل دورانها إلى أقصى ديار الإسلام وإلى مختلف بلاد أوربا، بل وتدخل البيوتات، فإن غير المسلمين الذين يعيشون في ديار الإسلام في ذمة أهلها وعهد حكامها، إذا بلغهم انتصار المسلمين في أوربا قضوا أياماً كئيبةً، أجسامهم متمايلة، ونفوسهم حزينة، وقلوبهم ضجرة يصعب الحديث معهم، ولا

يدري من جاورهم ما حلّ بهم، حتى يظنّ أن مصيبةً قد حلّت بهم أو نكبةً أصابتهم. وإذ بلغهم انتصار إخوانهم، ولو انتصار جزئي عمّت بينهم الفرحة، ونزلت بهم المسّرة، فعلت دورهم الأصوات المستبشرة، وازيّنت بعض جدرانهم الداخلية، حتى يظن جيرانهم أن سعادةً جاءتهم فيهمّوا بتهنئتهم. هذا ما يبدو وما تخفي صدورهم أكثر. وهناك الدعاء الذي لا يكاد ينقطع، ورغبة في السفر للنصرة، فكم من أفرادٍ غادروا منازلهم مرتحلين للدعم، ومن متسللين مع متسللاتٍ قدموا لبثّ الشائعات والتخذيل.

استمرت المعارك والصراع بين العثمانيين المسلمين والأوربيين الصليبيين عدة قرونٍ تقرب من الثمانية من (٧٦٢ ـ ١٣٤٢هـ)، أي من فتح العثمانيين لمدينة (أدرنة) حتى إلغاء الخلافة، غير أن قرنين من هذه المدة كان العثمانيون فيهما يتقدّمون وتزداد قوتهم، وكذا كان وضع الأوربيين، ثم أعقبهما مرحلة كان الأوربيون فيها يزدادون قوةً وتماسكاً وتخطيطاً، على حين كان العثمانيون فيها يتراجعون لعدم وجود تخطيطٍ، ولسيطرة العقلية العسكرية، والاتفاقيات مع الدول الأجنبية التي لا عهد لها ولا ذمّة، والزواج من

الأجنبيات، وتأثير التخطيط الأوربي وما فيه من مكرٍ، إذ حرّك إخوان الأوربيين في العقيدة ممن يعيش في الدولة العثمانية، كما حرّك أصحاب المصالح والأهواء من سكان الدولة إضافةً إلى أصحاب العصبيات الجاهلية من دعاة القوميات والمناطق المحلية.

انتهى الصراع بين العثمانيين المسلمين والأوربيين الصليبيين مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، حيث هُزم العثمانيون مع شركائهم في الحرب، وانتصر الحلفاء وأخذوا أجزاء من الدولة العثمانية، كما كانت لهم السيطرة على أمصار من ديار المسلمين، فأصبحت بريطانيا تسيطر على مصر، وفلسطين، والأردن، والعراق، والكويت، والبحرين، وقطر، واتحاد الإمارات العربية، والسودان، وباكستان، وماليزيا، وغامبيا، وسيراليون، ونيجريا، وجزءٍ من الصومال، وتنزانيا، و. . . .

وسيطرت فرنسا على سورية، ولبنان، وعلى بلاد المغرب العربي، والسنغال، وغينيا، وساحل العاج، والتوغو، والداهومي، وبنين، والنيجر، وبوركينا فاسو، والكاميرون، وجزر القُمُر، وتشاد، وإفريقية الوسطى، و. . . .

وسيطرت هولندا على أندونيسيا.

وسيطرت إيطاليا على ليبيا، وجزء من الصومال، و. . . .

وسيطرت بلجيكا على أقسامٍ صغيرةٍ، و. . . .

وكان لألمانيا مستعمرات خسرتها بعد هزيمتها في الحرب العالمية.

وسيطرت روسيا على بلاد القازاق، وبلاد القفقاس، والتركمان، والأوزبك، والطاجيك، والقيرغيز، و. . . .

اتخذ المستعمرون السياسة التالية:

١ ـ فرض كل مستعمرٍ لغته على البلاد التي استعمرها، وجعلها مادةً رئيسة في السنوات الدراسية، منذ المرحلة الابتدائية، لترسخ في أذهان الطلاب.

٢ ـ عمل على إلغاء تدريس مادة الدين الإسلامي، لينشأ الجيل بعيداً عن دينه.

٣ ـ ركّز على حضارة أمته في الوقت الذي أهمل الحضارة الإسلامية، وإذا ذُكرت فبشكلٍ مشوّهٍ، وأعطيت صورةً غير صحيحةٍ.

٤ ـ عمل على نشر المحرمات في الدين الإسلامي،

كالسفور، والاختلاط، وخاصةً في المدارس، و. . .، والخمور، والبغاء، و. . . .

٥ ـ سمح لأهل الذمة، ولأبناء الفرق الضالة الالتحاق بالجيش، وهذا ما أفقد القتال صفة الجهاد، وأضعف القتال، وخاصة إن كان مع أبناء عقيدتهم.

فنشأ جيل كثير من أفراده ضعفاء بعقيدتهم، مرتبطون بثقافة المستعمر، عندهم عقدة نقصٍ أمام حضارة ولغة الأعداء، فترى لغة المستعمر تملأ شوارع المدن، وعلى ثياب الناس، تُكّلم الشخص فيجيبك بكلامٍ نصفه من لغة العدوّ، مفتخراً على أنه ذو ثقافةٍ، ولغةٍ وعلم وحضارةٍ، وبذا دخلت كلمات كثيرة في أحاديث النّاس، حتى غدت كأنها من لغة الأمة، وغدا أفراد كثيرون من الشواذ ينتقدون ما هي عليه الأمة، ويدعون إلى تقليد واتباع أمم الغرب. وهذا الوضع يحتاج إلى علاج لإنقاذ هؤلاء الأفراد مما وقعوا فيه، إذ أنهم على هذه الحال خطر على الأمة ومستقبلها.

ولما رأى الأعداء أنهم قد وصلوا إلى ما أرادوا، لم يجدوا مانعاً من الجلاء عن البلدان التي استعمروها، إذ حقّقوا أكثر ما يهدفون إليه من إيجاد ركائز لهم

ومؤيدين، ونشر ثقافةٍ ولغةٍ، وإيجاد شبهات، وإدخال محرمات، ولهذا كله أثر في المستقبل، وفي الوقت نفسه فإن الجلاء يخفّف من غربة جندهم عن أهليهم وبلدهم، وإن استمرار الاستعمار يُولّد كراهية أهل مستعمراتهم لهم، في الوقت الذي يريدون التقرب منهم للتأثير عليهم فكرياً، وشدّهم نحوهم، هذا إلا فريقاً من أصحاب المصالح إذ يهمهم البقاء ليبقى لهم النفوذ وفرض الكلمة.

وكان الجلاء وخرج المستعمرون، وكان ما كان إذ خلّفوا وراءهم مفتونين بهم، ومقلّدين لهم، وعن هذه الطريق استمرّ الغزو الفكري، وكان غزواً يختلف عن السابق إذ أصبح الآن دون إكراهٍ، كما دخل هذا النوع إلى البلدان التي لم يدخلها الاستعمار العسكري، من باب الشعور بالضعف وحب التقليد.

الفصل الأول

الإيمان

شغل القتال العثمانيين فانصرفوا إليه بِقواهم كلها يريدون نشر الإسلام، يبتغون الفضل من الله، ويحتسبون الأجر منه سبحانه وتعالى. غير أنهم ـ مع الأسف ـ لم يتخذوا ما يلزم اتخاذه للوصول إلى الهدف المرجو:

١ ـ لم يختاروا القادة على أساسٍ إيمانيٍ، لذا لم يكن الجانب الإيماني هو الذي يمتاز به الجيش، ولم يعمر الإيمان العسكر بالشكل الواجب.

٢ ـ كان العسكر ينطلقون إلى القتال بأسلوبٍ عسكريٍ لا بصفة مجاهدين، وهذا ما يُضعف القتال، ويضعف الروح المعنوية، ويصبح قتال المسلمين مشابهاً لقتال الطرف الآخر.

صحيح أنه كان لا يلتحق بالجيش العثماني إلا الرجل المسلم، فلا يضمّ هذا الجيش أحداً من أهل

الذمة، ولا من تلك الفرق الضالة، ولما كان لأفراد الجيش رواتب للذين يلتحقون به، لذلك كان الذين يحرم عليهم الالتحاق به، يتمنّون ذلك، ويُطالبون بالسماح لهم بالانضمام إليه من أجل الراتب، ولو كان الخروج للجهاد لما طالبوا بالالتحاق، بل لو دُعوا لاعتذروا وأبدوا العلل، وهذا ما أفقد الروح المعنوية لأفراد الجيش، لأن القتال لا يحمل فكرة الجهاد.

ولو انضمّ إلى الجيش من كان محرماً عليه، لخافت الأمة من خيانة هؤلاء، لأننا نقاتل إخوانهم في العقيدة.

٤ ـ الزواج من الأجنبيات (غير المسلمات) وهذا لا يصحّ إذ أننا نقاتل أهلهن في العقيدة، فيكنّ عيوناً لهم، وخاصةً إن كنّ في بيوت قادةٍ أو مسؤولين. أما الآية الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة].

وهذا للمحصنات من أهل الكتاب من الذمة،

الذين في عهدنا وذمتنا ويعيشون في كنفنا، ومن باب الحذر والحرص يكره الزواج من الكتابيات، حيث يخشى أيضاً من وقوع مخالفاتٍ شرعيةٍ في بيوت المسلمين عن طريق هذه الزوجات، كتناول المشروبات أو المأكولات مما هو محرم على المسلمين، أو دخول الرجال من أقارب هذه الزوجات إلى بيوتهن. ويضاف إلى ذلك تربية الأبناء تربيةً بعيدةً عن الإيمان والعادات الإسلامية. وكان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن قال بكراهية الزواج من أهل الكتاب. واستشهد بعضهم بالآية الكريمة ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة]. وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (لا أرى أعظم شركاً ممن تقول: إن عيسى ربها). هذا مع العلم أن كتاب الله فرّق بين المشركين وأهل الكتاب. وأن الآية في سورة المائدة قد نزلت بعد آية سورة البقرة.

وروى الخلال بإسناده أن حذيفة، وطلحة، والجارود بن المعلّى، وأذينة العبديّ تزوّجوا نساءً من

أهل الكتاب، فقال لهم عمر رضي الله عنه: طلّقوهنّ، ففعلوا.

ولاشك، فإن دخول نساء غير مسلماتٍ إلى بيوت المؤمنين سيضعف الجانب الإيماني في البيت، وبالتالي في المجتمع، ويكفي أن نعرف دسائس (روكسلان) وهي زوجة الخليفة العثماني الثاني (سليمان القانوني)، وهي فتاة يهودية ـ إحدى سبايا تتار القرم المسلمين ـ حصلوا عليهن في إحدى معاركهم مع الخزر، وقد رأوها رائعة الجمال فقدّموها للخليفة، فحظيت عنده بمكانةٍ لحنكتها ودهائها وحسن تدبيرها، إضافة إلى جمالها، فاستشار أهل العلم بالزواج منها فأجازوا له ذلك، وتلوا عليه ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة] حيث قرّبوا له الأمر حسبما يشتهي، فعقد عليها وتزوجها، وبدأ مكرها يعمل دوره وأخذت الدسائس تعمل، فوصل ولدها إلى الخلافة مكان أبيه بعد مقتل أخيه، ووصل صهرها (دوستم باشا) إلى الصدارة العظمى، ووُجدت فكرة (يهود الدونمة) وظهرت إلى

الواقع، ولعبت دوراً خطيراً في الحياة السياسية، وهذا كان له أثره في القضاء على الخلافة الإسلامية، وفي ظهور العصبيات الجاهلية التي شتّتت الأمة الإسلامية.

٤ ـ اشتغال الدولة بأمور القتال، وعدم التركيز على الجانب الإيماني

٥ ـ اشتغال المسؤولين في الدولة بالفتن التي أثارها الأعداء في ديار الإسلام، كالصراعات القومية، واختصاص قومٍ معينٍ بالخلافة، والتجّمعات السياسية، و. . . .

ونتيجة هذا كله فقد فتر الجانب الإيماني، فضعفت الروح المعنوية، وتجزّأت الأمة، وبدأت الصراعات بين تلك الأجزاء من أقوامٍ، وأمصارٍ، وتجمّعاتٍ، ومناطق.

الفصل الثاني

الخلافة

لقد شعر أعداء الأمة الإسلامية بالسعادة عندما قضى المغول الوثنيون على الخلافة في بغداد، وما خفيت تلك السعادة على أحدٍ، بل كان يوم القضاء عليها عيداً عندهم.

ولما قامت الخلافة بالقاهرة بعد سقوطها في بغداد بثلاث سنواتٍ، شعر الأعداء باكتئابٍ، ثم لم يلبث أن زال شيء من اكتئابهم بعد أن رأوا أنها أشبه ما تكون في حالة غيابٍ، إذ لا يظهر الخليفة إلا من وراء ستارٍ شفافٍ تظهر صورته، ولا يبدو أثره، ويتصرّف السلطان المملوكي بكل شيء، وليس للخليفة سوى الاسم، بل تُسمّى الدولة باسم دولة المماليك أكثر مما تُعرف باسم الخلافة، ومع ذلك فالعداوة واضحة، والكراهية شديدة، مادامت كلمة الخلافة تُمثّل الأمة الإسلامية وتجمع أبناءها، وتُوحّد كلمتهم، وترصّ صفوفهم.

بعد مرور مائتين وأربع وستين سنةً على قيام هذه الخلافة التي عاشت في شبه غيابٍ كانت قد ظهرت السلطنة العثمانية وقد ارتفع اسمها، واشتّد ساعدها وقوي سلطانها، ولكن سلطان المماليك أصحاب النفوذ على الخلافة والخليفة لم يدعموا السلطنة العثمانية في مهمتها الإسلامية، ولم يفسحوا المجال لقواتها باجتياز أراضيهم للوقوف في وجه المستعمرين البرتغاليين القادمين من الجنوب، والذين دخلوا البحر الأحمر وهدّدوا المقدسات الإسلامية، وعزموا على نبش قبر رسول الله ﷺ فما كان من السلطان العثماني (سليم الأول) إلا أن اتجه بقواته إلى مصر قاعدة دولة المماليك فقضى على هذه الدولة وورثها، وتنازل له الخليفة عن مركزه، كما جاءه شريف مكة وأعلن له الطاعة، فتسمّى (خليفة المسلمين وخادم الحرمين)، وسار مع الخليفة العباسي السابق إلى قاعدته (استانبول) فأعلنها داراً للخلافة، وأعلن دولته خلافةً، وانطلق حاملاً هذا اللواء.

كانت جيوش السلطنة العثمانية تتقدم في أوربا، وتدحر قواتها أمامها، وتحتلّ من أراضيها، هذه وهي سلطنة محلية فكيف وقد غدت خلافةً عامةً، تتجه أنظار

المسلمين جميعاً إليها، وقد يأتيها الدعم وتصل إليها المساعدات!!!! لقد أصاب الذعر الدول الأوربية، وطاش صواب المسؤولين، لقد وحّد هذا الأمر جهد الأوربيين، واتفقت كلمتهم على الوقوف في وجه الخلافة بقوةٍ وحزمٍ.

بدأ القتال بين الخلافة العثمانية والدول الأوربية بأسلوبٍ جديد فيه حقد أوربي عنيف، وعزم عثماني قويّ، وطال الزمن ومضت عدة قرونٍ دون الوصول إلى نتيجةٍ حاسمةٍ، وإذا كانت الدول الأوربية قد أحرزت بعض الانتصارات إلا أنها لم تستطع إخراج العثمانيين من أوربا، بل ولا الحدّ من انتشار الإسلام، وقد ظهرت ميزاته، وبدت حسناته، ووضحت صلاحياته للتطبيق، حتى لا يمكن أن يقارن به منهج آخر، أو نظام ثانٍ مهما كان.

وجد الأوربيون أنه لا بدّ من اللجوء إلى المكر والحيل بالعمل على تشتيت صفوف المسلمين، ووجدوا أن العمل الأمثل هو تفريق الأمة الإسلامية إلى شعوبٍ وقبائل متنافسةٍ متنافرةٍ (العصبية الجاهلية). وبدأ العمل إلى ذلك غير أنهم لم يجدوا بين المسلمين من يحمل هذه الدعوة الجاهلية لأنها تتنافى مع الإسلام الذي

يُؤكّد على وحدة الأمة الإسلامية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

عمل الأوربيون جاهدين للوصول إلى من يتبنّى هذه الدعوات ويحملها لها، فلم يجدوا رغم أساليب الإغراء كلها من مناصب، ومالٍ، وشهواتٍ، ولم يظفروا بضالّتهم فلجؤوا إلى أبناء عقيدتهم النصارى وإلى بقية أهل الذمة فوجدوا ما يبغون، فأعطوهم التوجيهات اللازمة، ومنّوهم الأماني المعسولة، وطلبوا منهم أن يدعو إلى وحدة الشعب ماداموا يتفقون بالأصل الواحد، فحمل يهود الدونمة ـ وهم يظهرون الإسلام طبعاً ـ فكرة وحدة الشعب الطوراني (التركي)، وحمل نصارى الشام فكرة وحدة الشعب العربي، ووجدت قوميات أخرى كردّ فعل، فكان على سبيل المثال القومية البربرية وغيرها. وربما ظهرت دعوات لقومياتِ أجزاء من شعبٍ واحدٍ، كالقومية السورية التي ظهرت فيما بعد، ومع ظهور هذه الدعوات تجزّأت الأمة الإسلامية أولاً، ثم صار بينها منافسات وخلافات، وهذا ما شتّت الأمة وأضعفها. ولما كانت هذه الدعوات تقوم على عصبيةٍ جاهليةٍ لذا فهي بعيدة عن الإسلام، ولا تأخذ بمنهجه ولا تبالي بذلك، وهذا ما

أضعف الرابط الإيماني بين الجماعات التي تعدّ أجزاء من الأمة الإسلامية، بل غالباً ما نرى قادة هذه الدعوات هم من أبناء أهل الكتاب الذين يعيشون بين المسلمين، ويكفي هذا لنعرف الأيدي التي وراء هذه الدعوات، والأهداف التي تعمل لها.

وتفككت الخلافة تحت تأثير الدعوات الشعوبية، وسهُل أمرها، وأمكن للأعداء الانتصار عليها والقضاء عليها بمكرٍ وتخطيطٍ من بعض هؤلاء الرجال الذين لعب بهم يهود الدونمة، وتقاسم الأعداء بعض أجزاء ديار الخلافة، وطبّقوا فيها سياستهم، وما يهدفون إليه وما يسعون وراءه، ولم يسمح لفردٍ أو جماعةٍ بالدعوة إلى الخلافة أو الدعوة لها، إذ يعني ذلك الدعوة لاجتماع المسلمين، وإذا ما اجتمعوا برزت قوتهم وأمكنهم الانتصار على أعدائهم. وأعداؤهم هم الذين يحكمون، ويُسيطرون، ويستفيدون، ويُنفذون مخططاتهم ومناهجهم، فكيف يقبلون ذلك ؟

وإذا ما حدث ودعا إلى الخلافة أفراد أو جماعات ثارت حولهم الاتهامات، وأُثيرت حولهم الشائعات، وقُدّموا للسؤال، ونالوا العقوبات. لذا بعُد الحديث عن هذا الموضوع، وهذا أحد أهداف الأعداء.

الفصل الثالث

الجهـاد

أيام قـوة الأمة الإسـلامية كان الخليفة إذا أراد الجهاد أعلن ذلك ورفع الراية، فتحرّكت كوامن النفوس، فظهر ما تحمله من إيمانٍ، وأسرع المسلمون إلى مكان اللقاء يوم المسير، وسار المجاهدون على بركة الله، على أحسن ما تكون تعبئة الجيوش، وأفضل ما تكون التجهيزات، لأن المسلم مندفع إلى الجهاد في سبيل الله، يدعو إلى الله ويعمل على نشر الإسلام، ويطلب الشهادة، لينال الفوز العظيم بلقاء الله، والوصول إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض. ولم يكن الخليفة وأركانه بحاجةٍ إلى حشد الجيش، والاستعداد والتجهيزات، وإنما ينطلق الأفراد مُستعدّين مُجهّزين يحتشدون من تلقاء ذاتهم، وما على الخليفة أو من ينوبه إلا تعيين القائد، وإعطاء التعليمات والأمر بالمسير، وهذا لا نظير له عند غير المسلمين.

ويندفع المجاهدون للقاء العدو، فإذا ما التقوا به انقضّوا عليه كأسود الشرى، يبغون الشهادة في سبيل الله، فلا يُبالون بشيءٍ، لا يُهمهمّ عدد العدو ولا فاعلية سلاحه، إذ يريدون الشهادة، أما جند العدو فيريدون السلامة ويحرصون على الحياة، لذا يطلبون النجاة، فيولّون الأدبار، وينتصر المجاهدون انتصاراً مُؤزّراً، وهكذا غالبية معارك المسلمين مع أعدائهم في تلك المرحلة من تاريخنا.

وجاءت مرحلة ضعف الخلافة، فقلّت المعارك مع الأعداء، وقلّ رفع راية الجهاد، ولكن إذا ما ارتفعت وانطلق المجاهدون في سبيل الله والتقوا مع الأعداء كانت نتائج القتال كما كانت في المرحلة السابقة، لذا حرص الأعداء الحرص كله، وعملوا الأساليب والوسائل جميعها حتى لا يكون قتال المسلمين معهم جهاداً، حتى عملوا على عدم إثارتهم، وعملوا على اتخاذ أساليب الإغارة و. . . .

وعرف أعداء المسلمين كلهم على اختلاف أممهم وشعوبهم، والذين قاتلوهم على مختلف الجبهات أن الجهاد هو الأسلوب الناجح أبداً لفوز المسلمين، وما تلك الانتصارات الرائعة والعظيمة التي

حققها المسلمون في مراحل تاريخهم، إلا برفع راية الجهاد، ولكن بشرط أن تكون القلوب عامرةً بالإيمان، والقتال في سبيل الله.

ولما غلبت العقلية العسكرية على القيادات، وغدا العمل بالاستعداد المادي بكثرة العدد، وفاعلية السلاح تقليداً للذين نُحاربهم، ومُجاراةً للأمر الشائع، فيا للفوز الذي حقّقه الأعداء، فلكم سعوا إليه فلم يظفروا به حتى أتينا لهم به طائعين دون أن يبذلوا أدنى معاناةٍ، لذا كانت حروبنا معهم في أوربا أيام العثمانيين تارةً ننتصر وأخرى نُهزم، ننتصر ـ بإذن الله ـ بعدد الجند وخبرتهم، وفعالية السلاح، ومهارة القائد، وكفاءة المعاونين، وحسن الموقع، وكذا شأن الطرف الآخر. أدرك الأعداء ما أصابنا من تغيّرٍ في أسلوب معاركنا فاشتدّت عزائمهم، ولم نُدرك ـ مع الأسف ـ فخارت عزائمنا وحلّت بنا الهزائم. وأصبحوا في أعيادٍ، وأمسينا في أحزانٍ مذ تركنا الجهاد، وتخلّينا عما أمرنا الله به، وما سار عليه رسول الله ﷺ وسلفنا الصالح. وجارينا الأعداء، وما سار عليه غير المسلمين.

هُزم المسلمون، وانتصر الأعداء، ودخلوا ديارنا، واستعمروا أكثر بلداننا، واقتسموها فيما بينهم، وطبّقوا

سياستهم الاستعمارية على ما استعمروا، بل كانت غزواً فكرياً لكل ديارنا سواء ألحقها الاستعمار أم لم يلحقها، وحذّروا من فكرة الجهاد وإثارتها. ومرّت الأيام، ورسخ الفكر الذي أراده الغزاة، وتأثّر بعض أصحاب الأهواء والمصالح، وضعاف الشخصية، ومرضى القلوب، فقلّدوا الدخلاء، وحملوا فكرهم ـ فكر الأقوياء ـ وافتخروا وساروا على نهجهم وتباهوا، فكانوا وكلاءهم إذ غابوا، ونوابهم إذ ساروا، وفي مكانهم إذا رحلوا، فهم حملة فكرهم، ومنفّذو مخططهم.

وجاء أمر الله وارتحل المستعمرون إلى بلادهم، وغادروا مواقعهم، وثبّتوا ركائز لهم، وأشرق الجو، وتفتحت بعض العقول، وتنبّه بعض الأفراد فمرّوا على التاريخ وقرؤوا عن جهاد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، وعن القادة الفاتحين، وتذكّروا الفتوحات الكبرى، ومعارك النصر العظيمة فما رأوا إلا ما يرفع رأس المسلم عالياً، فذكروا الجهاد وتحدّثوا به.

وجاءت هجمات قاسية على الذين تحدّثوا بالجهاد، وصرخات عنيفة في وجوههم، وأُعطوا صفاتٍ أُلصقت بهم، أطلقها الأعداء ويُكرّرها ركائزهم، ومقلّدوهم و. . . .

فهل نقبل ما يقوله الأعداء أم ما يقوله الله في كتابه العزيز.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة].

الخاتمة

كل أمةٍ في الدنيا إذا أرادت الرفعة والمكانة، والعزة والكرامة، والقوة والمهابة، لا بدّ لها من أن تحرص على نقاطٍ ثلاثٍ:

١ ـ أن يكون الرابط بين قلوب أبنائها قوياً.

٢ ـ أن يكون الاتصال بين شعوبها متيناً.

٣ ـ أن تكون الروح المعنوية عاليةً فيما إذا اشتدّ الخطب، وكي لا يطمع طامع فيها، ولا يستطيع حاسد أن يقترب منها.

والأمة الإسلامية إحدى هذه الأمم، وتضمّ عدداً من الأقوام والأمصار، فالإيمان يجمع بين القلوب، والخلافة تجمع بين الشعوب، والجهاد يرفع الروح المعنوية، فتكون الانتصارات على الأعداء.

وهذا ما رأيناه في رحلتنا التاريخية، فعلينا أن نحافظ على هذه الأمور الثلاثة، ونعمل على قيامها، وخاصةً الإيمان أصل السعادة في الدارين، ولو كره الأعداء.

والسلام على من اتبع الهدى، وخشي الرحمن بالغيب.

المُحْتَوىٰ